فى المستقبل حتى نستخدم عقلنا استخداما أفضل »[١] .

نزعة ديوى الطبيعية الأخلاقية ...

وإذا كنا قد رأينا فيما سبق أن ديوى قد قال بالاتصال والاستمرار ، فليه بدعًا أن نجده يستبعد كل ثنائية ، بما فى تلك الثنائية التقليدية بين الواقعة act و«القيمة» Value ، أو بين «ما هو كائن» و« ما ينبغى أن يكون». والـ أن فلسفة ديوى تعبر عن « نزعة طبيعية أخلاقية » : Moral naturalism ، لأ ترى أن « ما ينبغى أن يكون » يصدر دائمًا عما « هو كائن » ، ويرتد دائ إليه ، بحيث إن « ما ينبغى أن يكون » هو نفسه صورة من صور « ما ه كائن » . وإن كنا هنا بإزاء صورة تتسم أولا وبالذات بطابع الفعل « النشاط » . والطابع الدينامى الذى تتصف به فلسفة ديوى هو الذى يسمح بالانتقال من « التقرير » إلى « التقدير » ، أو من « الملاحظة » إ « الإلزام » ، أو من « العلم » إلى « الأخلاق » ، دون أن تستهدف لتلك المآ التى يتعرض لها فى العادة كل انتقال من هذا القبيل . والواقع أن التجربة لا تمد بعناصر سكونية تحتاج إلى قوى خارجية حتى تشرع فى الحركة ، بل إن مب الحركة باطن فى الحركة نفسها ، كما أن الغايات بعيدة كل البعد عن أن تكون ه التى تجعل أفعالنا مشروعة ، نظرًا لأنها لا تخرج عن كونها إسقاطًا لرغبا وسوراتنا . ومعنى هذا أن « الحاجة والرغبة ، اللتين ينبثق منهما هدفنا ، ويصد عنهما اتجاه طاقتنا ، إنما تمضيان إلى ما وراء كل ما هو قائم بالفعل » . وليس « الغايات » — فى نظر ديوى — سوى « أهداف » يضعها المرء أمامه ، حت يقوم بالتصويب نحوها . والمعايير التى تسمح لنا بتقييمها باطنة فى صميم المواقف المختلفة التى يجد المرء نفسه بإزائها . ومعنى هذا أن « الدينامية » الباطنة مشاعرنا وعقولنا هى التى تتكفل بتفسير « السورة » التى تدفعنا إلى العمل

---

(١) Dewey : "Reconstruction in Philosophy", p. 140.

لكن المهم أن يفطن المرء إلى المجرى الصحيح للعمل أو أن يهتدى إلى الخير لحقيقى الذى لا بد له من التماسه . وليس للغايات أو الخيرات الأخلاقية من جود اللهم إلا حين يكون ثمة شيء لا بد من عمله . وليس من شك فى أن مجرد جود شيء لا بد من عمله إنما هو الدليل على أن ثمة شرورًا ونقائص فى الموقف راهن ، وبالتالى فإن « الخير » الذى يتطلبه « الموقف » لا بد من أن يتخذ سورة « كشف » أخلاقى يكون علينا الاهتداء إليه فى ضوء العيوب الحالية النقائص الراهنة . وهكذا نرى أن « الحياة الأخلاقية » فى نظر ديوى إنما هى سورة من صور « البحث » ، على اعتبار أن كل « بحث » يتضمن بالضرورة حلال النظام والاتساق والتوازن محل الفوضى والاضطراب وعدم التوازن . ليس بدعًا أن تكون للبحث صبغة أخلاقية ، ما دام « البحث » — فى نظر يوى — علامة للنمو البشرى وشرطًا أساسيًا لكل تقدم إنسانى . وإذا كان ثمة اجب أخلاقى يفرض نفسه علينا بطريقة قطعية صارمة ، فما ذلك سوى واجب البناء » الذى تفرضه علينا ضرورات « النمو » ومقتضيات التحسين ...

الطابع الاجتماعى لفلسفة ديوى الأخلاقية ...

إذا كنا قد بينا فيما سبق أهمية مفهوم « الموقف » فى فلسفة ديوى ، فلا بد لنا من أن نضيف إلى ما سبق لنا قوله أن الوسط الطبيعى الذى يتطور فى كنفه الإنسان ، والذى تتكون منه « بيئته » الحقيقية ، لا يتألف من موضوعات ساكنة أو أشياء جامدة ، بل هو فى جوهره « وسط اجتماعى » . وقد أطلق ديوى على أحد كتبه فى الأخلاق اسم « الطبيعة البشرية والسلوك » : "Human nature and conduct" ، ولكنه جعل لهذا الكتاب عنوانًا فرعيًا هو : « مدخل إلى علم النفس الاجتماعى » . وهذه التسمية توحى بأن ديوى لم يرد لمبحثه الأخلاقى أن يكون مجرد دراسة لسلوك الفرد ، بل هو قد أراد أن يصف لنا استجابات الإنسان ومشاعره بوصفه فردًا ملتزمًا منخرطًا فى مواقف عدة ، أعنى باعتباره « كائنًا اجتماعيًا » يحيا فى احتكاك مستمر مع الآخرين . وليس

المقصود بعلم النفس الاجتماعى فى نظر ديوى سوى دراسة علاقات التأثير والتأثر المتبادلة بين الأفراد ، على اعتبار أن الحياة الاجتماعية عنده قائمة على « الأخذ والعطاء ». ولئن تكن فلسفة ديوى فى جوهرها فلسفة « اجتماعية »، إلا أنها لا تخضع الأفراد للتنظيم (الاجتماعى) ، بل هى تضع التنظيم نفسه فى خدمة الأفراد . والمهم فى الحياة الاجتماعية — فى رأى ديوى — إنما هى تلك الخبرات المشتركة التى تحصلها الإنسانية عن طريق « البحث » . وليس من شك فى أن النمو العقلى المطرد الذى اقترن بهذا « البحث » ، هو الذى عمل على توحيد البشرية وتحقيق ضرب من الاتساق الاجتماعى بين الأفراد . فالبحث الذى يتحدث عنه ديوى هو الذى هيأ للبشر فرصة التلاقى والمشاركة ، وهو الذى عمل على تزايد أسباب التواصل الفكرى بين الناس . وهنا يعلى ديوى من شأن « العقل » و« المعرفة » و« التواصل الفكرى » ، فيقول إن معظم القيم الأخلاقية والميتافيزيقية والدينية التى دخلت فى تكوين تراث الإنسان الحديث إنما هى فى أصلها « قيم عرفانية » انحدرت من « العلم » و« البحث »و« الذكاء ». ولما كان دور « البحث » هو إضفاء النظام والاتساق على الخبرات التى كانت فى الأصل متصارعة متنافرة، فإن ديوى يقرر أن « الخبرة المتسقة » هى بطبيعتها خبرة اجتماعية تقبل المشاركة. وإذا كان للدين ينابيع حية وجذور ممتدة فى صميم التجربة البشرية ، فما ذلك إلا لأن الخبرة الدينية متأصلة فى أعماق الحياة المشتركة للجماعة والخبرة المشاعة بين أفراد تلك الجماعة . ولما كان « البحث » هو المصدر الخصب للنمو البشرى وللتجدد المستمر للقيم ، فليس بدعًا أن يرى فيه ديوى موضوعًا ملائمًا للتبجيل (أو التقديس) الدينى ، خصوصًا وأن ثماره المتصلة هى دائمًا وباستمرار موضوعات للاستمتاع الحر من جانب أفراد الإنسانية جمعاء .

نظرة أخيرة إلى فلسفة ديوى ...

إننا لن نستطيع — بطبيعة الحال — أن نتوقف عند شتى جوانب تفكير ديوى ، بما فيها آراؤه الهامة فى التربية ، ونظرياته العميقة فى الديموقراطية ،